

Rosemary Sayigh (ed.)

*Yusuf Sayigh: Arab Economist, Palestinian Patriot; A Fractured Life Story*<sup>(\*)</sup>

(Cairo: American University in Cairo Press, 2015). 388 p.

## يوسف صايغ: خبير اقتصادي عربي ووطني فلسطيني؛ قصة حياة متقطعة

هاني فارس<sup>(\*\*)</sup>

قسم العلوم السياسية، جامعة بريتش كولومبيا في كندا.

في الحد الأدنى دور هذه الأسرة في الحياة العامة. أسس أبناء صايغ وأداروا مراكز بحثية ومؤسّسات فكرية ومجلات علمية، إضافة إلى إشرافهم على إعداد قواميس وموسوعات. صاغوا برامج سياسية، وخططاً تنموية وطنية وإقليمية، وبرعوا في مجال الدبلوماسية، ونشطوا في الحياة السياسية وأشرفوا على برامج طموحة أخرى كثيرة.

### - ٢ -

قدّمت أسرة صايغ العلم على كلّ ما عداه كونه وسيلتها الوحيدة للرفق والنجاح في الحياة. كان لعبد الله صايغ (١٨٨٥ - ١٩٧٤)

### - ١ -

كتاب يوسف صايغ إضافة مرحّب بها إلى مكتبة المؤلفات التي تتناول الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية. إضافة إلى إثرائه معرفتنا بيوسف صايغ، وهو خبير اقتصادي مرموق في حدّ ذاته، يسلط الكتاب الضوء على أسرة صايغ - أسرة أصولها سورية فلسطينية لبنانية مختلطة - ويحيطنا علماً بالإسهامات الكثيرة التي قدّمتها لدولتها وشعبها وأمّتها.

سيكون الباحثون في شؤون الشرق الأوسط بعامة، والحركة الوطنية الفلسطينية بخاصة، في القرن العشرين مقصّرين إن لم يقرأوا مؤلّفات أسرة عبد الله صايغ، أو عرفوا

(\*) في الأصل، نشرت هذه المراجعة باللغة الإنكليزية، في: *The Middle East Journal*, vol. 70, no. 1 (Winter 2016), pp. 162-164.

hani.faris@ubc.ca.

(\*\*) البريد الإلكتروني:

برعا في المدرسة واحتلا المركز الأول في صفّيهما حين تخرّجهما، وكذلك كثير من أشقائهما. وحصل جميعهم على هبات ومنحاً دراسية لمواصلة الدراسة في مراحلهم التعليمية كافةً. ولولا أداؤهم الدراسي المميّز، ما كانت الموارد المالية المحدودة لدى أسرّتهم لتحقيق طموحاتهم العلمية.

### - ٣ -

مع أنّ النّاتج الفكري والإنجازات المهنية لأفراد أسرة صايغ أكسبتهم الاعتراف والشهرة، لا يُعرف الكثير عن تاريخ أسرّتهم، والعلاقات بين أفرادها، وشخصيّاتهم، وحيواتهم الخاصّة. ألّف الوالد كتابه ذكرياتي في آخر حياته، لكن بقي معظم هذه الذكريات مجهولاً لأنّ نجله

وعفيفة البتروني (١٨٩٣ - ١٩٥٠) وأسرّتهما أثرهم البالغ في المجتمع العربي المعاصر. كل واحد من أبنائهما الستة<sup>(١)</sup> أعجوبة في مجاله: كان يوسف خبيراً اقتصادياً (١٩١٦ - ٢٠٠٤)، وفؤاد مهندساً (١٩١٩ - ١٩٥٩)، وفايز فيلسوفاً ومفكراً سياسياً ودبلوماسياً (١٩٢٢ - ١٩٨٠)، وتوفيق شاعراً وأديباً (١٩٢٣ - ١٩٧١)، ومنير طبيباً (١٩٢٩ - ١٩٧٥)، وأنيس مؤرخاً (١٩٣١ - ٢٠٠٩). زادت مؤلّفاتهم جميعاً، إضافة إلى مؤلّفات والدهم، على خمسين كتاباً علاوة على مئات الفصول والمقالات والنصوص والتقارير - منها عدد لا بأس به من الأعمال التي تُعتبر كلاسيكية<sup>(٢)</sup>. كما أنّ بعضهم مارس التدريس في جامعات عالمية مرموقة<sup>(٣)</sup>. اللفت للنظر أنّ الوالد والوالدة

(١) اختارت إحدى البنات، واسمها ماري (وُلدت في سنة ١٩٢٧) عدم الالتحاق بالجامعة. ومع أنها تفوّقت في المدرسة، أثّرت لزوم منزلها للاعتناء بأمّها المريضة.

(٢) من الكتب التي ألّفها أشقاء صايغ وتُعتبر ذات قيمة كلاسيكية نذكر: يوسف صايغ: الخبز مع الكرامة: المحتوى الاقتصادي الاجتماعي للمفهوم القومي العربي (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦١)؛ الاقتصاد الإسرائيلي (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطيني، ١٩٦٦)، و *Elusive Development: From Dependence to Self-Reliance in the Arab Region* (London: Routledge, 1991).

حول كتب فايز صايغ، انظر: Fayez A. Sayegh: *Arab Unity: Hope and Fulfillment* (New York: Devine-Adair, 1958), and *Zionist Colonialism in Palestine* (Beirut: Palestine Research Center (PRC), 1965).

انظر أيضاً لفايز صايغ: الدبلوماسية الصهيونية (بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية، مركز الأبحاث، ١٩٦٩).

وحول كتب توفيق صايغ، انظر: ثلاثون قصيدة (بيروت: دار الشرق الجديد، ١٩٥٤)؛ القصيدة ك (كاف) (بيروت: دار مجلة الشعر ١٩٦٠)، ومعلّقة توفيق صايغ (بيروت: المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، ١٩٦٣).

وحول كتب أنيس صايغ، انظر: لبنان الطائفي (بيروت: دار الصراع الفكري، ١٩٥٥)؛ الهاشميون وقضية فلسطين (بيروت: دار الطليعة، ١٩٦٦)، وفلسطين والقومية العربية (بيروت: مركز الأبحاث الفلسطيني، ١٩٦٧)، بالإضافة إلى تحريره الموسوعة الفلسطينية (بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٣).

(٣) مثال ذلك، مارس يوسف التدريس في الجامعة الأميركية في بيروت، ومارس فايز التدريس في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي جامعة أكسفورد، وستانفورد، ويال؛ ودّرّس توفيق في الجامعة الأميركية في بيروت، وجامعة أكسفورد، وكامبردج، وكلية الدراسات الشرقية والأفريقية، وفي جامعة كاليفورنيا في بيركلي؛ ودّرّس أنيس في الجامعة الأميركية في بيروت، وفي جامعة كامبردج، والجامعة اللبنانية، ومعهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة.

الثقافة، والسياسة، والإدارة القروية، والعلاقات بالجيران في المنطقة، والشخصيات المتنوعة إضافة إلى حياة أسرة صايغ وأفرادها، ويقدم صورة حيّة وسجلاً تاريخياً للحياة في البلدات السورية والفلسطينية في النصف الأول من القرن العشرين. لقد أدت العالمة الأنثروبولوجية البارعة روزماري في تحريرها المذكرات عملاً يستحق الثناء.

تتميز المذكرات في ناحية أخرى وهي أنها تحكي قصة مشاركة يوسف في منظمة التحرير الفلسطينية وفي الآليات الداخلية للمنظمة. وبالنظر إلى المراكز البارزة التي شغلها في منظمة التحرير<sup>(١)</sup>، تتميز آراؤه بسعة الاطلاع والأهمية. وهي تصف علاقاته بالمسؤولين في المنظمة، ولا سيما قيادتها، وبعثاته إلى المنظمات الدولية والحكومات الأجنبية، والخطط التنموية والوطنية التي عمل عليها ظناً منه بأن دولة فلسطينية ستري النور قريباً.

سخر يوسف قدراً كبيراً من وقته وجهده لهذه الأنشطة وهو ما أثر في صحته. لكن هذا العمل المضني لم يثمر الكثير ووضع أغلب المشاريع التي عمل عليها في الدرج (ص ٣١٦). لم تتعلم قيادة منظمة التحرير الفلسطينية تقدير قيمة التخطيط. لكن روايته تسهم في إتاحة فهم أفضل للتحديات التي واجهتها الحركة الوطنية الفلسطينية

الأكبر صادر من الناحية الفعلية جميع النسخ المطبوعة (ص ٢٣٩)<sup>(٤)</sup>. لكن أنيس قدم، من بين سائر أشقائه، حكاية عن أسرته في أيامها الأولى في الفصل الأول لمذكراته<sup>(٥)</sup>. والآن، وبفضل روزماري زوجة يوسف، أتاحت لنا مذكرات شاملة رسمية يمكن الوثوق بها تتميز بغناها وغزارة معلوماتها، وتتيح رؤى بشأن حياة يوسف وحياة أسرته. وكما تقول محررة الكتاب، «إنها قصة أسرة بقدر ما هي قصة يوسف صايغ» (ص ٣).

## - ٤ -

تتميز المذكرات في ناحيتين. فهي تقدم أولاً وصفاً تاريخياً لا يقدر بثمن للبلدات الثلاث التي أمضت فيها أسرة صايغ سنواتها الأولى وهي الخبرة في محافظة حوران (محافظة درعا حالياً) جنوب سورية (١٩١٨ - ١٩٢٥)، وقرية البصة الفلسطينية القريبة من الحدود اللبنانية (١٩٢٥ - ١٩٣٠)، وطبريا (١٩٣٠ - ١٩٤٨).

الأوصاف غنيّة ومليئة بالتفاصيل، وتتميز بالتنوع وكثيرة المعلومات. يدمج المؤلف ببراعة الحديث عن الناس والاقتصاد، والتجارة، والتركيب الدينية والعلاقات بين الأديان وبين الطوائف، والعلاقات الجنسية، ومكانة المرأة، والمؤسسات التعليمية، ومستويات

(٤) يقول أنيس إن والده كتب بضع صفحات قبل وفاته كرسالة خاصة خاطب بها أولاده دون سواهم. انظر: أنيس صايغ، أنيس صايغ عن أنيس صايغ (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٦). لكن يوسف يؤكد نشرها في كتاب مطبوع.

(٥) صايغ، أنيس صايغ عن أنيس صايغ، ص ١١ - ٧٥.

(٦) كان عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني وفي اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية. وعمل في مراحل متنوعة مديراً لمركز التخطيط في المنظمة، ورئيساً للصندوق الوطني الفلسطيني حيث أشرف على البرامج الاقتصادية والإدارية والتطويرية والمالية التي طوّرت من أجل دولة فلسطين المرجوة.

الذي حال دون مراجعته لأشرطة التسجيل قبل وفاته تفسّر هذه النواقص. لذلك، لا تقدّم المخطوطة وصفاً وافياً ليوسف الخبير الاقتصادي والباحث والأستاذ الجامعي، وهو الأمر الذي أدّى إلى اجتزاء إسهاماته المهمة في هذه الميادين. ففي النهاية، انتُخب غير مرّة رئيساً لجمعية الاقتصاديين العرب (أقرّت روزماري بهذا القصور. انظر ص ٦ - ٧).

الثغرة الأخرى غياب تفسير مُرضٍ لتحول يوسف على الصعيد الأيديولوجي من مُدافع قديم عن القومية السورية الكبرى إلى القومية العربية. فإضافة إلى أنه كان ناشطاً في الحزب السوري القومي الاجتماعي عقب انتسابه إليه في سنة ١٩٣٦ (ص ١١١)، أقنع ثلاثة من أشقائه بالانضمام إلى الحزب وكُلّف بنشر عقيدته في فلسطين وتجنيد أعضاء فيه قبل سنة ١٩٤٨ (عمل يوسف ممثلاً للحزب في مرحلة معيّنة، انظر ص ١٧٩ - ١٨٢).

الثغرة الأخرى ما يظهر أنه إجماع يوسف عن تقييم المشهد السياسي العربي في النصف الثاني من القرن العشرين والحكم عليه. لم يبح بالكثير عن آرائه في النظم العربية أو في القادة السياسيين أو في الحركات السياسية. لم يتّضح إن كان ذلك مقصوداً أم هفوة مُؤسفة. لكنّ الواضح أنّ أوجه القصور هذه ليست خطأ روزماري، ولكنّها عيوب متأصلة في عملية استحضار الذكريات الشفهية التي سجّلت في أوقات ضيّقة.

إذا أخذنا كل هذه العوامل في الاعتبار، يمكن القول إنّ مذكرات يوسف صايغ قراءة مهمة تُسهم في إثراء إلمامنا بالمجتمع العربي والسياسات العربية في القرن العشرين □

في المرحلة التي سبقت تأسيس السلطة الفلسطينية في سنة ١٩٩٤.

## - ٥ -

مذكرات يوسف صايغ ليست من النوع المألوف لأنها ذكريات شفوية. قاوم يوسف الرغبة في كتابة مذكراته لإحساسه أنّ حياته ليست بالأهمية التي تبرّر ذلك ولأنّ كتابة مذكرات «ستكون علامة غرور» (ص ٤). بقي على موقفه ذاك حتى شهر نيسان/أبريل ١٩٨٩ حين لبث يوسف في منزله ليتعافى من جراحة خضع لها، حيث أقنعت زوجته بتسجيل مذكراته. كتبت روزماري كان أسيري خلال تلك الأسابيع (ص ٥). سجّلت إحدى وعشرون جلسة شملت المراحل الأولى لحياته إلى حين وفاة والدته في سنة ١٩٥٠. ثم سجّلت جلسات إضافية قليلة بعد ذلك في أوقات متباعدة. لكنّ المرض اشتدّ بيوسف في السنين الثماني الأخيرة من حياته فعجز عن مواصلة عمله أو مراجعة تسجيلاته، فتولّت روزماري كتابة الحوادث وتحريرها والتحقّق منها، وتدوين ملاحظات توضيحية، ونشر المخطوطة بعد وفاة يوسف.

## - ٦ -

هناك ثغرة متأصلة معيّنة في مذكرات يوسف التي من الأليق وصفها بأنها ذكريات، وذلك عائد أساساً إلى كونها رواية أولية غير مكتملة عن حياته وأعماله. وتردّده الذي استمرّ طويلاً في كتابة مذكراته، وكثرة انشغاله الذي منعه من إتمام تسجيلاته، ومرضه الطويل